

شرياً^(١)، وأخذ خطياً^(٢)، وأراح عليّ نعماً ثرياً^(٣)، وأعطاني من كل رائحة زوجاً^(٤)، قال: كلي أم زرع وميري أهلك^(٥).

فلو جمعت كل شيء أعطاني ما بلغ أصغر آنية أبي زرع.

قالت عائشة: قال لي رسول الله ﷺ: كنت لك كأبي زرع لأم زرع^(٦).

هذه هي منزلة عائشة في قلبه ﷺ.. هي منزلة أم زرع عند أبي زرع، غير أن النبي ﷺ أحبها أكثر من حب أبي زرع لزوجته، لأن ذلك طلق، والنبي ﷺ لم يطلق. هذا الحب لا شك أغاظ المنافقين في المدينة.. أغاظ ابن سلول ومن معه من الخفافيش، كما أغاظهم من قبل انتصار النبي ﷺ في غزوة بني المصطلق، التي تشعبت آثارها حتى زلزلت قريش..

آثار غزوة بني المصطلق

انتهت غزوة بني المصطلق بانتصار النبي ﷺ على المشركين، وانتصار عائشة رضي الله عنها على المنافقين، لكن تلك المعركة تركت لدى قريش وحلفائها شعوراً أسوداً، ورعباً ترتعد منه أوصالها.. كأن الجبال تنزلزل من حولها.. كأن الكواكب تتهاوى على رؤوسها، فقد امتدت يد محمد ﷺ حتى طالت جيرانهم بني المصطلق، الذين عادوا بعد المعركة أحراراً بعد مصاهرتهم للنبي ﷺ، وقريش الآن تخشى أن تمتد إليهم يد محمد ﷺ فتأخذهم إلى غير رجعة.

ويبدو أن تلك الضربات التي تلقاها المسلمون من قريش وغيرهم من الوثنيين في أحد والرجيع وبئر معونة وغيرها.. لم تزدهم إلا صلابة وعزماً واتقاداً.. كأنها النار التي تذيب صداً الحديد.. كانت لقاحاً عاد بعده الجسم صحيحاً منيعاً، فها هو النبي ﷺ يرسل جيشاً لرصد قوافل قريش، التي تمر بمحاذاة الساحل.. في غزوة يحلو للبعض تسميتها:

(١) السري هو الشريف والشري هو الفرس الذي لا يفتر في سيره.

(٢) الرمح.

(٣) كثيرة والمقصود الثروة.

(٤) أي من كل ما يروح من الإبل والبقر والغنم.

(٥) أعطيتهم.

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (٥١٨٩) ومسلم (٢٤٤٨).

تري كم نحر من ناقة جزور..؟

يقول جابر أن سعد بن عبادة رضي الله عنه (نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم إن لم يتم إيقافه فسيقضي على مطايا السرية، وقد تعود إلى المدينة على الأقدام إن لم يتم إيقاف تدفقه.

كانت أياماً عصيبة ومريرة.. كان فارسها سعد بن عبادة الكريم، وكانت رحمة الله فوق ما يتصورون، فقد رأى بعضهم صخرة كبيرة جداً.. كانت سوداء وملساء تتمدد على الساحل.. اقترب الجميع منها فإذا هي ليست بصخرة.. إنها حوت عملاق يسمونه العنبر. كان ميتا لكنه ينبض بالحياة لهذه السرية، وقد فرح الجميع بهذه المفاجأة السارة، وشكروا الله عليها، لكن أبا عبادة تذكر أن الميتة لا تجوز، ثم تذكر كم يفتح الإسلام من أبواب الفرج في سويعات الضيق.. تذكر أن هناك ضرورة الإبقاء على هذه الأرواح والأجساد المنهكة الهزيلة، فسموا الله وأكلوا واستخرجوا من زيت الحوت، وشربوا ودهنوا أجسادهم المتعبة، وشعورهم الشعثة لمدة تتجاوز نصف الشهر.

هالهم حجم الحوت فقاموا بقياس ارتفاع أحد أضلاعه، ففرزوا الضلع، ثم نادوا أطول رجل في تلك السرية وأمره بأن يركب أرفع جمل أيضا، ثم أمر بالمرور، فمر تحت ذلك الضلع العملاق.

يقول جابر وهو يتحدث عن تلك المشاهدات العجيبة: (انطلقنا على ساحل البحر، فرجع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم، فأتيناه فإذا هي دابة تدعى العنبر.

قال أبو عبادة: ميتة. ثم قال: بل نحن رسل رسول الله ﷺ، وفي سبيل الله، وقد اضطررتم، فكلوا)^(٢) (فأكلنا نصف شهر وادهنا بودكه حتى صلحت أجسامنا)^(٣) (حتى سمنا ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينه بالقلال الدهن، ونقتطع منه الفدر كالثور، أو كقدر الثور، فلقد أخذ منا أبو عبادة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم في وقب عينه، وأخذ ضلعاً من أضلاعه فأقامها، ثم رحل أعظم بغير معنا فمر من تحتها)^(٤)

(١) صحيح البخاري ٤-١٥٨٥.

(٢) صحيح مسلم ٢-١٥٣٥.

(٣) صحيح البخاري ٥-٢٠٩٣.

(٤) صحيح مسلم ٣-١٥٣٥.

وبعد مرور نصف شهر من عثورهم على هذا الحوت الهائل أمر أبو عبيدة جنده بالعودة للمدينة، فقد أدوا المهمة التي أرسلوا من أجلها، وعادوا أحسن أجساداً وأكثر قوة، ثم اقتطعوا ما قدروا على حمله من لحم الحوت، ولما وصلوا إلى المدينة أخبروا نبيهم ﷺ بذلك، ففرح بفضل الله عز وجل على جنده، وطلب منهم أن يطعموه من ذلك اللحم الطيب.

يقول جابر رضي الله عنه: (وتزودنا من لحمه وشائق، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له؟ فقال: هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا..؟

فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ فأكله)^(١).

أما قريش فقد شعرت بخطورة الوضع بعد تلك السرايا، وبعد غزوة بني المصطلق، فقررت التحرك، لأنه لا بد من حسم الأمر قبل أن يستشري خطر المسلمين.. قبل أن تفتاجاً قريش بمحمد ﷺ وجيشه يطوفون حول الكعبة، ويحطمون الأصنام.

هذا هو الكابوس الذي يقض مضجع أبي سفيان ومن معه من الوثنيين.. هذا هو الخوف الذي تعيشه مكة، لكن ماذا عن المدينة..؟

هناك شعور لا يختلف عن هذا الشعور، فداخل دول الإسلام لم يكن الأمر كما يحب رسول الله ﷺ وصحابته تماماً.. كان هناك المنافقون الذين خرجوا للتو من هزيمة الإفك، وهناك أيضاً اليهود الذين أغاظهم نصر النبي ﷺ في غزوة بني المصطلق، وزاد غيظهم نصر الله لعائشة، فتحوّلت حصون اليهود إلى قدور ضخمة لطبخ الخيانة والمؤامرات.

اليهود يجمعون الأحزاب

لتنفيذ مؤامرة كالانتحار، فالذي يقومون به الآن ضرب من الانتحار. لأن فشل مؤامرتهم هذه يعني نهايتهم.. اليهود اليوم خناجر تسافر في الظلام، ولا تدري من

(١) صحيح مسلم ٣-١٥٢٥.

تصيب.. إن بينهم وبين قائد الدولة المسلمة عهداً بالألّا يخونوا، ولا يعتدوا، ولا يتأمروا،
والألّا فإن مصيرهم سيكون مصير بني النضير. لقد سامحهم ﷺ بعد خيانتهم الأولى،
وهم الآن طامعون في تسامح آخر إن فشلوا في مؤامرتهم، يقول أحد الصحابة: (إن
يهود النضير وقريظة حاربوا رسول الله ﷺ، فأجلى رسول الله ﷺ بني النضير وأقرّ
قريظة)^(١)

كان ذلك بعد غزوة بدر عندما (كتبت كفار قريش بعد واقعة بدر إلى اليهود: إنكم
أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتقاتلن صاحبنا، أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا
وبين خدم نساءكم شيء -وهي الخلايل- فلما بلغ كتابهم النبي ﷺ، أجمعت بنو
النضير بالغددر، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ: أخرج إلينا في ثلاثين رجلاً من أصحابك،
وليخرج منا ثلاثون حبراً حتى نلتقي بمكان المنصف، فيسمعوا منك، فإن صدقوك
وآمنوا بك، آمنا بك.

فقصّ خبرهم، فلما كان الغد، غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب، فحصرهم،
فقال لهم: إنكم والله لا تأمنون عندي إلاّ بعهد تعاهدوني عليه. فأبوا أن يعطوه عهداً،
فقاتلهم يومهم ذلك، ثم غدا على بني قريظة بالكتائب، وترك بني النضير، ودعاهم
إلى أن يعاهدوه، فعاهدوه، فانصرف عنهم.

وغدا على بني النضير بالكتائب، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، فجلت بنو
النضير، واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم، وأبواب بيوتهم وخشبها)^(٢)

منظر حزين يتكرّر على اليهود، ويتباكى عليه اليهود، ويطالبون العالم أن يبكي من
أجلهم.. وهم يجيدون التمثيل والتباكي، لكن أكثر ما يجيدونه هو سبب التباكي..

أكثر ما يجيده اليهود هو المؤامرات والخيانات، والطعن من الخلف، والطعن
في الظلام، وعندما يتلقون العقاب الرادع.. تسيل أنهار الدموع والبكاء والشعر على
مصيرهم البائس، وكأنهم لم يفعلوا شيئاً! وبنو قريظة يستحقون مصير بني النضير،

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٢٨) وأبو داود (٣٠٠٥) واللفظ له.

(٢) حديث صحيح مر معنا رواه أبو داود (٣٠٠٤) وقد صححه الإمام الألباني وانظر تعليقي على قوله رحمه
الله هناك غزوة بني النضير.

لكن النبي ﷺ منحهم فرصة، فإن فشلت مؤامرتهم الجديدة فإن عقابهم سيكون مضاعفاً.

دعونا نراقب هذا الوفد اليهودي الذي سافر سراً إلى مكة، ليجتمع بأبي سفيان وقيادات المشركين هناك، وليعرضوا عليهم مشروعاً عسكرياً يسحقون به دولة الإسلام والتوحيد، بعد أن فشل مشروع كعب بن الأشرف اليهودي مع قريش، فتم الإجهاز على كعب على يد محمد بن مسلمة رضي الله عنه، وها هو:

المشروع اليهودي من جديد

يحملة يهود من بني النضير فشلت خيانتهم، فتورموا من الحقد، ومعهم يهود آخرون تثيرهم هذه التجربة وهذا المشروع.

لم تتطلق الرصاصات من مكة، بل من حصون اليهود (إنه كان من حديث الخندق أن نفرأ من اليهود، منهم: سلام بن أبي الحقيق النضري، وحيي بن أخطب النضري «وكنانة بن أبي الحقيق النضري» وهودة بن قيس الوائلي، وأبو عمار الوائلي، في نفر من بني النضير، ونفر من بني وائل، وهم الذين حزّبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ، خرجوا حتى قدموا على قريش مكة، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ^(١)، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله؟

فقال لهم قريش: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول، والعلم بما أصبحنا نخلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دينه؟

قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه.

فهم الذين أنزل الله فيهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ۗ ﴾ (٥٢) أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذَا

(١) سبق أن خرج كعب بن الأشرف لكنه قتل قبل إكمال مشروعه.

لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَفِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ قَدْ ءَاتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ۖ وَءَاتَيْنَاهُم مَّلَكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمَنَّهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِ ۖ وَمَنَّهُم مَّنْ صَدَّ عَنْهُ ۖ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ (١).

لم يكتفِ اليهود بالتأمر عليه ﷺ، بل أضافوا إلى خيانتهم ونقض عهدهم والوثيقة المكتوبة بينهم وبين النبي ﷺ.. أضافوا إلى قائمة جرائمهم جريمة هي الأشنع والأحقر. جريمة تنزُّ بالخسَّة والوقاحة. زور اليهود وأباحوا لنفسهم القفز على كل مبدأ وعقل وحقيقة، فمنحوا للوثنيين المشركين صكاً بالبراءة من كل إثم في كل ما يرتكبونه من جاهلية، وسلبوا النبي ﷺ كل حق وحقيقة يملكها.. جعلوا التوحيد هو الباطل، وطلبوا من عبدة الأخشاب والأحجار الاستمرار في طقوسهم المنحطة.. فعلوا ذلك كله وهم أهل كتاب، وقد قرأوا الكثير.. الكثير عن محمد ﷺ ونبوته وصفاته، فما العقاب الذي يستحقه هؤلاء؟

مسلسل الوحل اليهودي لم ينته بعد، فبعد أن وضعوا قريشاً في إحدى جيوبهم.. توجَّهوا نحو قبيلة غطفان القوية، فأغروها بالنبي ﷺ والمدينة، وأغروها بتمر المدينة ونخيلها ونسائها، فاستجابت، ورفعت المؤامرة رأسها، وتدلَّت ثمارها أمام اليهود والوثنيين، لكن الخبر وصل إلى النبي ﷺ عن طريق رجل متهور من غطفان، يدعى «الحارث الغطفاني».

غطفان تطلب ثمن انسحابها من الأحزاب

وقد أرسلت من أجل هذه المهمة أحد وجهائها، رجل اسمه: الحارث الغطفاني.. ركب راحلته، وعندما استقرت به على أرض المدينة.. بحث عن النبي ﷺ، ولما وقف أمامه.. أملى على النبي ﷺ شرطه للانسحاب من التحالف اليهودي الوثني، وكان

(١) حديث حسن رواه ابن إسحاق بأسانيد عدة منها: حديثي يزيد بن رومان عن عروة ومن لا أتهم عن عبد الله بن كعب بن مالك.. ومحمد بن كعب القرظي والزهري وعاصم بن عمر بن قتادة.. وهذه الأسانيد كلها مرسلة وإن كان عبد الله بن كعب له رؤية.. وهي لا تقوي بعضها البعض لأنه ربما كان مصدرها واحداً وهو مجهول.. لكن لها شاهد يرفعها إلى درجة الحسن وهو عند ابن إسحاق أيضاً (تفسير ابن كثير - الأحزاب): حديثي محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبيرة عن ابن عباس.. وهو سند حسن بالشواهد من أجل محمد بن أبي محمد.. وابن إسحاق لا يتهمه.. انظر التقريب (٥٠٥) حيث قال عنه مجهول.

شرطاً يفوح صفاقة وتغطرساً، لكن إجابة الأنصار كانت كالسيف على رأسه، فقد رفض الأسدان سعد بن عبادة وسعد بن معاذ كل أنواع الابتزاز.. مهما كان مصدرها وقوتها: (جاء الحارث الغطفاني إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، ناصفنا تمر المدينة «وإلا ملأناها عليك خيلاً ورجالاً»؟

فقال ﷺ: حتى أستأمر السعود: سعد بن عبادة، وسعد بن معاذ يشاورهما «فقال: إني قد علمت أن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وأن الحارث يسألكم أن تشاطروه تمر المدينة، فإن أردتم أن تدفعوا إليه عامكم هذا حتى تنظروا في أمركم بعد..؟ قالوا: يا رسول الله أوحى من السماء؟ فالتسليم لأمر الله، أو عن رأيك أو هوالك؟ فرأينا تبع لهواك ورأيك؟

فإن كنت إنما تريد الإبقاء علينا فوالله لقد رأيتنا وإياهم على سواء، ما ينالون منّا تمرة إلا بشرى أو قرى»^(١) فقالا^(٢): ما أعطينا الدنيا^(٣) من أنفسنا في الجاهلية، فكيف وقد جاء الله بالإسلام..!! فرجع إليه الحارث، فأخبره. فقال: غدرت يا محمد. فقال حسان بن ثابت:

يا حارٍ من يغدر بذمة جاره منكم فإن محمداً لا يغدر
إن تغدروا فالغدر من عاداتكم واللؤم ينبت في أصول السخبر
وأمانة النهدي حيث لقيتها مثل الزجاجة صدعها لا يجبر

فقال الحارث: كفّ عنا يا محمد لسان حسان، فلو مزج به ماء البحر لمزجه^(٤) ولم يكن لسان حسان أشدّ من لساني السعدين.. لم يعرض ﷺ ذلك الأمر على أبي بكر،

(١) أي كانوا لا يستطيعون الحصول على تمرنا إلا بالشراء أو الضيافة.

(٢) قال السعدان: ابن عبادة وابن معاذ.

(٣) أي لم نعط الصفة والخصلة المذمومة في الجاهلية فكيف وقد أسلمنا.

(٤) سنده حسن رواه البزار زوائد ٢-٣٣١ واللفظ له، والزوائد للطبراني ٦-٣٤: حدثنا عقبه بن سنان، حدثنا عثمان بن عثمان الغطفاني، حدثنا محمد ابن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة. أبو سلمة بن عبد الرحمن تابعي ثقة أكثر. التقريب ٦٤٥ ومحمد بن عمرو بن علقمة حديثه حسن من رجال الشيخين، التقريب ٤٤٩ وعثمان صدوق من رجال مسلم السابق ٢٨٥ وعقبه بن سنان، البصري صدوق من شيوخ أبي حاتم، الجرح والتعديل ٦-٣١١.

ولا على عمر، بل على أهل دار الهجرة والكرم، وأصحاب الشأن الأول فهو لا يتخلى عن عهوده ومواثيقه. فذهب ذلك الوثني إلى قومه خائباً حيث كان الأنصار له كالموت.. بالسيوف بالشعر. عندها أدرك ﷺ خطورة الموقف والأحزاب.

تأمل ﷺ وضع المدينة، فوجد المعركة هذه المرة مختلفة، فقريش اليوم ليست وحدها.. معها غطفان، ومعها بقايا بني النضير الذين استطاعوا زحزحة يهود بني قريظة عن عهدهم وميثاقهم مع النبي ﷺ، وقد يلحق بقريش غيرهم من حلفائهم، والوقت قصير لا يحتمل التأخير، والجيش المسلم لا يستطيع التصدي لهذه الجموع خارج المدينة؛ فالأفضل البقاء في المدينة.. حيث يشارك الجميع في تلك المعركة دون استثناء، وحتى لا يتكرر ما حدث في أحد، لكن خيانة اليهود تثير المخاوف، وليس هناك وقت لبناء أسوار كأسوارهم، فليكن الحفر بدلاً من البناء.

حفر الخندق

قرّر ﷺ أن يحفر خندقاً يحصن به الجهة الشمالية للمدينة من هجمات قريش ومن معها، لأن بقية الجهات صعبة الاقتحام لكثرة النخيل والصخور والجبال، وفنّ القتال لا يعني المهارة في استخدام السلاح فقط، بل المهارة في استخدام وتسخير كل شيء يحيط بالمحارب. وقد تفنّن ﷺ في تسخير تضاريس المدينة وطبيعتها في هذه الحرب القادمة.. غير المتكافئة عدداً واستعداداً.

وجد عليه السلام أن جهة الشمال مفتوحة لاحتمالات مخيفة، فقرّر ﷺ إغلاقها، فبدأ حفر الخندق.. بدأ بحفره بيديه، فهو الذي ضرب أول معول في ذلك الخندق، الذي سيسكّل مفاجأة للوثنيين واليهود ومن معهم.

(ضرب رسول الله ﷺ في الخندق بيديه، ثم قال:

بسم الله وبه بدينا ولو بدنا غيره شقيننا

حبذا ربنا وحبذا ديننا)^(١)

(١) سنده صحيح رواه الحارث. المطالب ٤-٤٠٤ حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا أبو إسحاق الفزاري، عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان. معاوية الأزدي ثقة، التهذيب ١٠-٢١٥ وشيخه ثقة حافظ التقريب ١١٠. وأبو عثمان النهدي أدرك الجاهلية وأسلم في عهد النبي عليه السلام وقد ذكره الذهبي في التجريد ١٨٦ ضمن الصحابة وليس ضمن شيوخه تابعي.. وقد روي موصولاً عن سلمان عند البيهقي لكن سنده ضعيف.

فتهاوت المعاول بعده تعزف خندقاً، والحناجر تتغنى شعراً وحماساً. وسط هذا الحماس والتفاني.. كنت لا تدري هل كان النبي ﷺ معهم، أم هم الذين كانوا معه..؟ وسط ذلك الجو الشتوي البارد.. خلال ذلك الغبار المنبعث من الخندق.. لا تستطيع تمييز القائد من الأتباع..؟

أحد الصحابة اسمه سهل بن سعد يقول: (كنا مع رسول الله ﷺ في الخندق، وهم يحفرون ونحن ننقل التراب على أكتادنا)^(١) أما البراء بن عازب فيقول: (كان النبي ﷺ ينقل معنا التراب يوم الأحزاب، ولقد رأيته وارى التراب «شعر» بطنه «وكان رجلاً كثير الشعر»)^(٢) (كان ﷺ ينقل التراب حتى وارى شعر صدره، وكان رجلاً كثير الشعر، وهو يرتجز برجز عبد الله «بن رواحة»:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينه علينا وثبتت الأقدام إن لاقينا
إن الأعداء قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا

يرفع بها صوته «أبينا.. أبينا» «يمد صوته بأخرها»^(٣).

كان ﷺ يحمس من حوله بأبيات الصحابي الشاعر عبد الله بن رواحة رافعاً وماداً بها صوته، وكان لا بد من فعل ذلك، فالجو مشحون بالجوع والبرد والحذر فلا بد من إشعال جذوة الحماس.

لم يكتف ﷺ بذلك.. كان يذرع المنطقة.. يتفقد كل شيء.. يحتاط لكل شيء، ثم يعود لمحاربيه.. يشجعهم.. يحضر معهم.. يدعو لهم.. يحتضن فداءهم وإخلاصهم، وهم في حالة جوع شديد، وبرد قارس.

(خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع، قال:

اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩٨).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٧٢٣٦) والزوائد له (٣٠٣٤).

(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٣٠٣٤) والزوائد له (٤١٠٤ - ٤١٠٦).

فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً^(١)

البيعة تتجدد.. والحماس يتجدد، لكن الجوع والتعب يتجدد أيضاً. فما هو طعام كل مجموعة من هؤلاء المحاربين الأشداء، الذين يحتاجون إلى كل ثانية وطاقة.

طعام رجال الخندق

يقول الفتى الأنصاري أنس بن مالك: (جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول المدينة، وينقلون التراب على متونهم، وهم يقولون:

نحن الذين بايعوا محمداً على الإسلام ما بقينا أبداً
ويقول النبي ﷺ وهو يجيبهم:

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة فبارك في الأنصار والمهاجرة
قال: ويؤتون بملء كفي من الشعير، فيصنع لهم بإهالة سنخة توضع بين يدي القوم، والقوم جياع، وهي بشعة في الحلق، ولها ريح منتن)^(٢)

هؤلاء العظماء ليس لهم طعام سوى شعير مطبوخ بسمن عتيق بشع الطعم والرائحة، بينما يتمتع الوثنيون بأطيب الطعام، أما اليهود، ف لديهم مخزون أكثر من كاف لمثل هذه المؤامرة، ولهم منافذ مفتوحة على حلفائهم، بينما يعيش محمد ﷺ وجنوده طقساً من الحصار والبرد والجوع والطعام الخشن والقليل، وتمضي أيام على هؤلاء الأخيار من المهاجرين والأنصار.

ثلاثة أيام من الجوع والحفر

نقلوا فيها الحجارة من عمق الخندق إلى عمق جوعهم ويطونهم.. قدّو الحجارة من الخندق، وألصقوها ببطونهم من شدة الجوع، ثم ربطوها، في الوقت الذي تسلل فيه المنافقون كالحيات إلى بيوتهم.. إلى شوائهم ونسائهم وشرابهم.. كأن الأمر لا يعنيهم.. كأن المدينة ليست وطناً لهم..

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩٩).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٠٠).

كان ذلك الجوع امتحاناً لإيمان هؤلاء المؤمنين الذين صبروا واحتسبوا .

يقول جابر: (لما حضر النبي ﷺ وأصحابه الخندق، أصاب النبي ﷺ والمسلمين جهد شديد، فمكثوا ثلاثاً لا يجدون طعاماً، حتى ربط النبي ﷺ على بطنه حجراً من الجوع)^(١).

لكن ماذا بعد ثلاثة أيام من الجوع والطعام القليل..؟

إن رحمة الله قريب من المؤمنين.. جاءت المعجزة في بيت جابر، فزال عن المؤمنين شيئاً مما بهم.

طعام جابر والمعجزة

جابر بن عبد الله.. الصحابي العظيم.. ابن الصحابي العظيم، الذي يعول تسع أخوات وزوجته.. يستأذن النبي ﷺ لكنه ليس كاستئذان المنافقين. لم يذهب لبيته كما يذهب ذلك المنافق طلباً للراحة بين أهله والطعام والشراب، لكنه رأى منظرًا أحزنه وآلمه أشد الألم، فلم يطق البقاء في مكانه.. انطلق عله يجد في بيته ما يخفف تلك الآلام.. إنها على أقل الأحوال محاولة.

يقول رضي الله عنه: (كنا مع رسول الله ﷺ يوم الخندق نحضر فيه، فلبثنا ثلاثة أيام لا نطعم شيئاً، ولا نقدر عليه، فعرضت في الخندق كدية^(٢))، فجئت إلى رسول الله ﷺ فقلت: هذه كدية قد عرضت في الخندق. «فقال رسول الله ﷺ: أنا نازل»

فرششنا عليها الماء، فقام رسول الله ﷺ وبطنه معصوبة بحجر، فأخذ المعول، أو المسحاة، ثم سمي ثلاثاً، ثم ضرب، فعادت كثيباً أهيل^(٣).

فلما رأيت ذلك من رسول الله ﷺ، قلت: يا رسول الله، ائذن لي. فأذن لي. فجئت امرأتي فقلت: ثكلتك أمك، إني قد رأيت من رسول الله ﷺ شيئاً لا صبر عليه «رأيت برسول الله ﷺ خمصاً شديداً»^(٤) فما عندك؟

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٣-٣٠١ والبيهقي ٢-٤٢٢ حدثنا وكيع، حدثنا عبد الواحد بن أيمن، عن أبيه عن جابر. وأيمن وابنه ثقتان التقريب ٣٦٦ ووكيع إمام معروف.

(٢) أرض صلبة.. صخرية.

(٣) رملاً متناثراً.

(٤) جوعاً شديداً.

قالت: عندي صاع من شعير، وعناق^(١).

فطحنا الشعير، وذبحنا العناق، وأصلحناها، وجعلناها في البرمة^(٢)، وعجنت الشعير، ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ فلبثت ساعة، ثم استأذنته الثانية، فأذن لي، فجئت، فإذا العجين قد أمكن، فأمرتها بالخبز، وجعلت القدر على الأثافي^(٣)، «ثم وليت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: لا تفضحني برسول الله ﷺ وبمن معه»

ثم جئت رسول الله ﷺ، فساررته، فقلت: إن عندنا طعيماً^(٤) لنا، فإن رأيت أن تقوم معي أنت ورجل أو رجلان معك فعلت.

فقال ﷺ: ما هو، وكم هو؟ قلت: صاع من شعير وعناق.

قال: ارجع إلى أهلك فقل لها: لا تنزع البرمة من الأثافي، ولا تخرج الخبز من التور حتى آتي. ثم قال للناس: قوموا إلى بيت جابر، «فقام المهاجرون والأنصار».

قال جابر: فاستحييت حياءً حتى لا يعلمه إلا الله. فقلت لامرأتي: «قد افتضحت ثكلتك أمك، وقد جاءك رسول الله ﷺ وأصحابه أجمعون».

«فقالت: بك وبك. فقلت: قد فعلت الذي قلت».

فقالت: أكان رسول الله ﷺ سألك عن الطعام؟ قلت: نعم.

قالت: الله ورسوله أعلم، قد أخبرته بما كان عندك.

فذهب عني بعض ما كنت أجد. قلت: لقد صدقت.

فجاء رسول الله ﷺ، فدخل، ثم قال لأصحابه: لا تضاغظوا، ثم برّك على التور وعلى البرمة^(٥). فجعلنا نأخذ من التور الخبز، ونأخذ اللحم من البرمة، فنشرد^(٦)، ونغرف، ونقرب إليهم.

(١) أنثى الماعز لم تبلغ الحول.

(٢) القدر.

(٣) الأحجار التي يوضع عليها القدر عند الطبخ.

(٤) طعام قليل.

(٥) أي دعا بالبركة على التور والبرمة أي القدر.

(٦) هته ثم بله بمرق.

وقال رسول الله ﷺ: ليجلس على الصحيفة^(١) سبعة أو ثمانية.

فلما أكلوا كشفنا التور والبرمة، فإذا هما قد عادا إلى أملاً ما كانا، فنشرد، ونغرف، ونصرب إليهم، فلم نزل نفعل ذلك كلما فتحنا التور، وكشفنا عن البرمة، وجدناها أملاً ما كانا، حتى شبع المسلمون منها «وهم ألف، فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجينا ليخبز كما هو» وبقيت طائفة من الطعام، فقال لنا رسول الله ﷺ: إن الناس قد أصابتهم مخمصة، فكلوا، وأطعموا، فلم نزل يومنا نأكل ونطعم^(٢).

معجزة أخرى

تحدثت عنها طفلة أنصارية.. نادتها أمها، ولما لبّت نداءها وضعت في طرف ثوبها تمرات، ثم أمرتها بالتوجه نحو أبيها وخالها وهما يحضران مع رفاقهما الخندق. طوت تلك الطفلة البريئة تمراتها بطرف ثوبها، ثم طوت الأرض، لكن رجلاً صادفها في طريقها فأخذ منها التمر، فأخذنا منها هذه القصة المعجزة..

إنها (ابنة بشير بن سعد، قالت: بعثتني أمي بتمر في طرف ثوبي إلى أبي وخالي وهم يحضرون الخندق، فمررت على رسول الله ﷺ، فناداني، فأتيته، فأخذ التمر مني في كفي، وبسط ثوباً فنثره عليه، فتساقط في جوانبه، ثم أمر بأهل الخندق فاجتمعوا، وأكلوا منه، حتى صدروا عنه)^(٣) وقد شبعوا من التمر وهم أكثر من ألف رجل.. شبعوا من ملء الكفين من التمر.

معجزة تزيد الطاقة والإيمان.. قدمها ﷺ لمن يحضرون الخندق. تلك المعجزات تفتح أبواباً جديدة من الفرح والفرج للمؤمنين، وكأن ذلك الخندق ممر إلى الدنيا

(١) الإناء أو الطبق الذي يوضع فيه الطعام.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٠٢).

(٣) سنده صحيح رواه ابن إسحاق والبيهقي ٢-٤٢٧ من طرق عنه: حدثنا سعيد بن ميناء، عن ابنة بشير بن سعد: وسعيد بن ميناء الحجازي مولى البخري. أبو الوليد تابعي ثقة من رجال الشيخين، التقريب ٣٤١ وابنة بشير صحابية صغيرة.

بأسرها، وكأن المعاناة في حفره معاناة ولادة النور وانتشاره، أما بالنسبة للمناقضين، فكان لبعضهم هداية، وللعنيد المكابر طوقاً يخنقهم.. هم كالكلاب ينتظرون من يمسك بطرف السلسلة ليتبعوه وهم يهزون أذيالهم.. منقادين أذلاء.. كانت المعجزات تغيظهم، وتدفعهم إلى مزيد من العناد والمكابرة، لكن أشد ما أغاظهم عند حفر الخندق.. هو تلك المعجزة التي لهج بها ﷺ، ليس لمن يحفرون الخندق فقط، بل لأبنائهم ولمن بعد أبنائهم. ففي الوقت الذي يرتجف فيه المنافقون من الهلع.. كان ﷺ يستبشر ويبشّر ب:

فتح فارس والروم واليمن

يعد أصحابه بذلك وهو يضع الحجر على بطنه من الجوع.. يقول ذلك لأصحابه وهو يحفر خندقاً يدافع به عن دولته الصغيرة، التي لا تتجاوز حدودها حدود هذا الخندق.. يبشّرهم وهم جياع بكنوز فارس والروم، وقصور اليمن، لأنه نبي، ولأنها حقيقة قادمة كشمس الغد.

يقول أحد المشاركين في الخندق: (لما كان حين أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق، عرض لنا في بعض الخندق صخرة عظيمة شديدة، لا تأخذ فيها المعاول. فشكونا ذلك إلى النبي ﷺ.. ٩.

فلما رآها أخذ المعول وقال: بسم الله. وضرب ضربة، فكسر ثلثها، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إنني لأبصر قصورها الحمر إن شاء الله.

ثم ضرب الثانية، فقطع ثلثاً آخر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إنني لأبصر قصر المدائن الأبيض.

ثم ضرب الثالثة، فقال: بسم الله، فقطع بقية الحجر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إنني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة^(١).

(١) حديث حسن وسنده ضعيف رواه أحمد ٤-٣٠٣ والبيهقي ٣-٤٢١ وسبب ضعفه هو ميمون الزاهري لكن الحديث حسن بما بعده وبأحاديث أخرى.

وصحابي آخر لم يحضر الحادثة، لكنه سمع من صحابي آخر فيقول: (إذا صخرة بين يديه قد ضعف عنها، فقال نبي الله ﷺ: دعوني فأكون أول من ضربها، فقال: بسم الله، فضربها، فوقعت فلقة ثلثها، فقال: الله أكبر قصور الروم ورب الكعبة. ثم ضرب أخرى بأخرى، فوقعت فلقة، فقال: الله أكبر قصور فارس، ورب الكعبة. فقال عندها المنافقون: نحن نخندق على أنفسنا وهو يعدنا قصور فارس والروم!!^(١)).

هؤلاء المنافقون هم الذين قال الله عنهم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾^(٢)

أمر هؤلاء المنافقين محير ومزعج..!! لا تدري ما الذي يريدونه، ولا ما مبدؤهم ولا هدفهم، ولا تستطيع تمييزهم بسهولة..؟

الكفر مرض والنفاق أشد منه، وجسد الدولة الإسلامية يستطيع الاحتياط والوقاية من مرض الكفر، لكن عندما يتسلل فيروس النفاق إليه.. تبدأ رحلة طويلة ومريرة من العلاج، وتناول الأدوية والعقاقير للقضاء عليه.

وفي غزوة الخندق.. كانت الدولة الإسلامية تحتاط بالخندق من الوثنيين، لكن من الصعب حفر خندق يحول دون المنافقين المتظاهرين بالإيمان، لا سيما في هذا الوقت الذي انتهى ﷺ وأصحابه من حفر الخندق، ووصل فيه أحزاب الأصنام إلى مشارف المدينة، فعسكروا أمام الخندق، وبدأ حصار قاسٍ وشديد على المدينة.. عندها بدأ المنافقون يظهرن كالبنور الكريهة المتقيحة على جسد المدينة.. في هذه الظروف الحرجة ظهر نفاقهم وكفرهم وحقدهم على النبي ﷺ والصحابة، ومع ذلك كله تمتع ﷺ وأصحابه بأكبر قدر من ضبط النفس وعدم التهور بإيقاع أي عقوبة على أولئك المنافقين، الذين فاحت خيانتهم من خلال كلماتهم ونظراتهم، وحركاتهم التي كانت تفتقد إلى أقل معاني الرجولة والنخوة. ازداد الوضع حرجاً، فقرر ﷺ

(١) حسن بما قبله رواه الطبراني رجاله ثقات لكنني لم أعر على ترجمة لنعيم بن سعيد فيما لدي من مراجع. ثم وجدت أن هناك خطأ في اسمه حيث قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٦ - ١٩٠: رجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن أحمد بن حنبل ونعيم العنبري وهما ثقتان. وهو كما قال، لكنني لم أتأكد من توثيق نعيم.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ١٢.

وضع النساء والأطفال داخل أحد الحصون

وهو حصن لبني حارثة.. دخلته عائشة أثناء غزوة الخندق وتحدثت عنه، فقالت: (إنها كانت في حصن بني حارثة يوم الخندق، وكان من أحرز^(١) حصون المدينة، وكانت أم سعد بن معاذ معها في الحصن)^(٢)، وعندما بدأت المناوشات بين جيش المؤمنين وجيوش الوثنيين كان هناك طفلان يقومان بحركات كلهما فضول وبراءة.

أسماء بنت أبي بكر وأم سلمة رضي الله عنهما كانتا داخل الحصن، وكان معهما طفلان كالورد: عبد الله بن الزبير ابن أسماء، وعمر ابن أبي سلمة ابن هند «أم سلمة».

وفي غفلة من أميها صعدا إلى أحد الأسطح لمشاهدة ما يحدث خارج الحصن.. كانا قصيرين، لكن قصر قامتيهما لم يمنعهما من الإصرار على المشاهدة، فقررا أن يتأوبا المشاهدة.. ينحني أحدهما فيصعد الآخر على ظهره، ثم تكون نوبة الآخر في الانحناء، وهكذا..

حركات مفعمة بالبراءة والإثارة والفضول الجميل.. ها هو عبد الله بن الزبير.. سنسأله عما جرى.. ٩.

إنه يقول: (جعلت يوم الخندق مع النساء والصبيان في الأطم^(٣))، يعني حصناً، ومعني عمر بن أبي سلمة، فجعل يطأطئ^(٤) لي، فأصعد على ظهره، فأنظر إليهم كيف يقتتلون وأطأطئ له، فيصعد فوق ظهري، فينظر^(٥).

لأنه لا يستطيع سوى النظر فقط، ولا يسمح له بالمشاركة رغم حماس الأطفال وحبهم لتقليد الكبار. بقي الأطفال كلهم مع النساء، إلا من بلغ الخامسة عشر مثل عبد الله بن عمر بن الخطاب الذي كان يتحرق للقتال يوم أحد، لكن النبي ﷺ رده، وها هو اليوم خارج حصن بني حارثة.

(١) أمتع.

(٢) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي (٢٤٠/٣) حدثنا عبد الله بن سهل عن عائشة أنها كانت.. وعبد الله بن سهل تابعي ثقة من رجال الشيخين -التقريب (٦٦٩) واسمه عبد الله بن عبد الرحمن بن سهل الأنصاري. قال البخاري: عبد الله بن سهل سمع من عائشة انظر: التهذيب (٢١٥/١٢) ويكنى بـ أبي ليلى.

(٣) الحصن.

(٤) ينحني.

(٥) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٢٠) ومسلم (الفضائل) والبيهقي (٤٣٩/٣) واللفظ له.

ماذا قال لك النبي ﷺ يا ابن عمر..؟

يقول رضي الله عنه: (إن النبي ﷺ عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه، وعرضه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه)^(١)، وسمح له بالقتال والمشاركة بالمعركة، أمّا من كان دون هذه السن فقد اكتفى بالمشاهدة، حيث كانت الساحة تموج بالترقب والتوتر.. كان المؤمنون فيها خلف سواترهم يرقبون أي اقتحام لهذا الخندق ليضربوا ضربتهم، أمّا جيوش الأصنام فقد جنّ جنونها مما ترى أمامها من ذكاء عسكري نادر.. وقيادة لا مثيل لها.

حيّرها هذا الخندق.. هذا الإبداع العسكري الذي لم تعرفه العرب من قبل، ولم تستخدمه!!

إن اقتحامه ضرب من الجنون أو الانتحار، أما الغزو عن طريق الجهات الأخرى، فيعني التمزق والهزيمة، فهل ستكتفي قريش ومن معها من الوثنيين بالحصار والقتال عن بعد.. عن طريق التراشق بالنبل والرمية بالأسهم؟.. ربما، فلن يقدر على اقتحام هذا الخندق إلا شجاع أو منتحر.

ها هو الشجاع الذي سيقتحم الخندق.. ها هو وقد استطاع عبوره باحثاً عن مبارز.. إنه عمرو بن عبد ودّ:

فارس يبحث عن مبارز

وقف أمام جيش المؤمنين متحدّياً.. يفيض شجاعة وحماساً، فانبرى له حتف مخيف كحمزة.. خرج له عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فبارزه فجعله تاريخاً، وسقط عمرو بن عبد ود وسقط تحدّيه.

يقول أحد الصحابة: (قتل من بني عامر بن لؤي: عمرو بن عبد ود، قتله عليّ بن أبي طالب مبارزة)^(٢).

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٩٧).

(٢) هذا الجزء من الحديث حسن وهو ما صح من قصة علي مع عمرو بن عبد ود.. رواه الحاكم ٣٢-٣٢ وسنده ضعيف لأن الحكم لم يسمع هذا الحديث من مقسم لكن هذا الجزء من الحديث له شاهدان مرسلان.. عند البيهقي (٤٣٥/٣) عن عروة، وعن محمد ابن كعب القرظي فقتل علي لعمرو ثابت بهذه الأسانيد، أما تفاصيل المبارزة وما جرى من حديث فلم أجد سوى مراسيل وهي لا تتقوى ببعضها لاحتمال توحد المصدر.

انتظر الوثيون خروجه من الخندق وسيفه يقطر بأرواح المؤمنين، لكنه لم يخرج..
لم يغادر مكانه، فليس هناك مشرك يصمد أمام سيف عليّ.

أحسّ المشركون بأنه لا طريق تؤدي إلى رقاب المؤمنين، ولا دروب إلى المدينة إلاّ طريقين لا ثالث لهما: إمّا المبارزة، وهذا الأمر بعيد جداً، وإمّا الرماية بالسهم، وهذا هو الأمر الوحيد الذي يقدرّون عليه، لكنه لن يجدي نفعاً إلاّ إذا تحركت قوات اليهود الخونة وخرجت من حصن بني قريظة، ويقدر ما كان الخندق بيت الطمأنينة في قلوب المؤمنين.. كان حصن بني قريظة يثير الخوف والقلق في أوساط المؤمنين، لذلك قام ﷺ بتغطية كافة الاحتمالات لأن المعركة والخيانة قد تشتعلان ليلاً، فماذا فعل ﷺ؟

كلمة السر

كلمة يعرف بها المؤمنون بعضهم بعضاً متى ما دهموا ليلاً من قبل الوثنيين أو اليهود.

قال ﷺ لأصحابه: (إن بيّتكم العدو، فقولوا: «حم، لا ينصرون»)^(١)

كان ﷺ يقرأ ما حوله تماماً.. يقرأ تفكير الخيانة جيداً، ولذلك طلب فارساً من أصحابه.. يتطوّع للذهاب حيث حصن بني قريظة، كي يقدم تقريراً عن آخر تحركاتهم، وهل بدأوا تنفيذ مؤامرتهم مع قريش وغطفان؟.. هل بدأوا التحرك العسكري للضرب من الخلف؟..

هَبّ الزبير مليئاً نداء النبي ﷺ.. حمل روحه وسيفه وانطلق كالسهم نحو بني قريظة، وفي طريقه مرّ من تحت سور حصن بني حارثة، فشاهده ابنه الصغير عبد الله الذي كان يطل من الحصن، بالتناوب مع صديقه الصغير عمر بن أبي سلمة.

يقول عبد الله بن الزبير: (كنت أنا وعمر بن أبي سلمة في الأطم الذي فيه نساء رسول الله ﷺ، أطم حسان، فكان يرفعني وأرفعه، فإذا رفعتني عرفت أبي حين يمر إلى بني قريظة «على فرسه»، وكان يقاتل مع رسول الله ﷺ يوم الخندق)^(٢).

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٤-٦٥ و٢٨٩ الترمذي (١٦٨٢) وغيرهما من طرق عديدة عن أبي إسحاق عن المهلب بن أبي صفرة عن أحد الصحابة. والمهلب من ثقات الأمراء وقد سمع منه أبو إسحاق وقال عنه: ما رأيت أميراً أفضل منه -التقريب ٥٤٩.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٢٠) ومسلم (الفضائل) وأحمد (١/١٦٤) واللفظ له والزوائد للبخاري.

أما والده الزبير فيقول: (كان رسول الله ﷺ قال: من يأت بني قريظة فيأتي بني بخبرهم؟ فانطلقت، فلما رجعت جمع لي رسول الله ﷺ بين أبويه، فقال: فذاك أبي وأمي) (١) فقد أدى عملاً بطولياً، وأخبر النبي ﷺ بأن بني قريظة قد نقضوا العهد وما زالوا على خيانتهم.. تأزم الوضع، وبدأ المنافقون بالتململ، فقد ضاقوا بمجريات الحرب، وبدأت الأزمات تكشف عن حقيقتهم، وتحرق تلك القشرة التي يختبيئ كفرهم تحتها. فضحتهم الحرب، وفضحهم الله بآيات كالسيوف على رقابهم.. بدأوا يقدمون التماساتهم وأعدائهم بعدم القدرة على الصمود، نظراً للخطر الذي قد يحدث لأهلهم وبيوتهم، بعد أن رأوا السهام تمطر على جيش المؤمنين.

انسحب المنافقون الواحد تلو الآخر.. هرباً من المعركة.. كان منظرهم يجلب الإحباط والغضب لدى المؤمنين، لولا ثقتهم بنصر الله ووعده، واشتد الأمر على المؤمنين، وضاق بهم السُّبُل في أيام تعصف بالجوع والبرد والموت.. أعداء في الخارج أعلى المدينة، ويهود أسفلها، ومنافقون ينسحبون كالجرذان بين بيوتها، ويطالبون المؤمنين بالاستسلام والتسليم للوثنيين.

يقول سبحانه عن تلك الأيام العصيبة: ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ١٠ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ١١ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ١٢ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ١٣ وَيَسْتَعِذُّ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ١٤ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُمِِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا فِيهَا إِلَّا بَسِيرًا ١٥ قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذْ لَا تُنصَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ١٦ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٣٧٢٠).

(٢) مازالوا يسمون المدينة يثرب، ويطالبون المؤمنين بالرجوع لئلا ينزلهم لأنهم مهزومون لا محالة.

(٣) عذرهم في الانسحاب من المعركة أنهم يخافون على بيوتهم من السرقة والأعداء.

(٤) أي لو دخل الأعداء المدينة ثم طلبوا من المنافقين إعلان الكفر لأعلنوه حالاً.

بِعَصْمِكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وِثْرًا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ^(١) وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ^(٢) ﴿٣﴾.

أولئك هم المنافقون، وتلك هي سفالتهم وانحطاطهم.. مات فيهم كل شيء.. حتى بقايا صفات الخير التي كان العرب في الجاهلية يتفاخرون بها.. حتى تلك.. ماتت داخل نفوسهم.. خنقتها عن النفاق وأجهز عليها، وها هو العفن يتطاير في أجواء المدينة.. يحاول التسلّل إلى عزائم المؤمنين ليخنقها، ليبعث في جنباتها الإحباط. إنهم الآن بين نساءهم يأكلون ويشربون، ويبخلون بطعامهم على أولئك الصامدين أمام الخندق، وليتهم اكتفوا بذلك. إنهم يطالبون أولئك الفرسان بالانسحاب والاستسلام، لأن المعركة في نظرهم محسومة، وأبو سفيان سيحتل المدينة غدًا إن لم يقم بذلك اليوم..

أولئك المنافقون نسوا كل شيء.. نسوا أن المدينة مدينتهم.. نسوا عهدهم مع الله ورسوله.. نسوا بيعتهم لله ورسوله.. نسوا وعدهم بالصمود معه ﷺ، وأن لا يفرّوا من المعركة مهما كانت النتائج.

هذا ما بدا للجميع من هؤلاء الأندال، أمّا ما خفي فإن الله كشفه بهذه الآيات التي غرقت ما بداخلهم، وأخرجته وكشفته للجميع.. لقد شرّحتهم الآيات، وبيّنت للناس أيّ سرطان يتمدّد في المدينة.. فضحهم الله وبيّن أنهم جاهزون لإعلان الكفر حالما يرون جيوشه تقتحم الخندق والمدينة، لكنهم لا يستطيعون ذلك الآن، فالنبي ﷺ لا يزال هو القائد، وخوفهم منه، وخوفهم من الموت واضح في أعينهم التي تدور كما تدور أعين الذي يعاني سكرات الموت وشدة النزاع، ويشدّد دوران أعينهم أكثر ما يشدّد الآن، فالخوف في كل مكان، والجوع في كل مكان، والبرد في كل مكان.. و:

(١) الذين يعيقون غيرهم من الجهاد والدفاع عن المدينة.. ويطالبونهم بالبقاء معهم.
(٢) يشحون على المؤمنين بالمساعدة والجهاد وحتى بالدعم المعنوي بالسنة لا خير فيهم.
(٣) سورة الأحزاب: الآيات ١٠-١٩.

القتال يشتد

و(اشتد الأمر يوم الخندق، فقال رسول الله ﷺ: ألا رجل يأتيني بخبر بني قريظة، فانطلق الزبير، فجاء بخبرهم)^(١) و غدرهم الذي لم يتزحزح حتى الآن.

كان ﷺ يخشى على المدينة منهم، فلديهم من العتاد والعدّة والحقد الشيء المخيف، ولذلك بعث الزبير مرّة ثانية حتى لا يفاجأ بجيشهم فتكون القاضية، واستأنف الوثيون رشقهم بالنبال.. كانت نبالاً طائشة وغير طائشة، وهذا ما أثار خوف عائشة..

عائشة تخاف على سعد بن معاذ

وتقول: (كان رسول الله ﷺ وأصحابه حين خرجوا إلى الخندق، رفعوا الذراري والنساء في الحصون مخافة العدو عليهم. قالت عائشة: فمرّ سعد بن معاذ وعليه درع مقلصة^(٢)، وقد خرجت منها ذراعه، في يده حريته توقد، وهو يقول:

لا بأس بالموت إذا حان الأجل لبث قليلاً فيشهد الهيجا حمل
فقال أم سعد: الحق يا بني، فقد والله أخّرت.

فقال عائشة: يا أم سعد، لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هي، فخافت عليه)^(٣).

كان خوف عائشة في محله، وكان جميل سعد وتفانيه في الدفاع عن براءة عائشة مثنياً عندها، ولن تتساه له. ف:

هل أصيب سعد بن معاذ رضي الله عنه

أجل.. لقد أصابه سهم في ذراعه.. رماه مشرك يدعى (حبان بن العرقعة) أصابه وهو يرتجز بهذه الأبيات المليئة بالحماس والموت، والتي ربما قالها رجل سابق اسمه: حمل..

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٢٧٢٠) ومسلم (الفضائل) وأحمد (٣/٢١٤) واللفظ له.

(٢) ربما يعني أنها كانت تضم صدره.

(٣) سننده صحيح رواه ابن إسحاق، ومن طريقه البيهقي (٢٤٠/٣) حدثنا عبد الله بن سهل، عن عائشة: أنها كانت.. وعبد الله بن سهل هو أبو ليلى المدني، تابعي ثقة من رجال البخاري ومسلم، وقد قال الإمام البخاري: عبد الله بن سهل سمع من عائشة - التهذيب (٢١٥/١٢) والتقريب (٦٦٩).

سعد بن معاذ.. هذا الفارس العظيم، والمؤمن النقي، الذي لا يخشى في الله أحداً، والذي دافع عن عرض النبي ﷺ أثناء إشاعة الإفك.. هذا الصحابي الجليل أصيب بسهم في ذراعه، وقد نزف دماً كثيراً وحالته خطيرة، والوضع أخطر.

اعتنى النبي ﷺ بهذا الرجل الكريم، فأمر بحمله وعلاجه، وصنع قبة له داخل المسجد النبوي كي يزوره أهله وأصحابه، وليكون تحت سمع النبي ﷺ وبصره. لكن سعداً كان جمالاً.. كان فداءً حتى وهو ينزف.. كان محملاً بالأحلام والانتصارات والأمانى.

أمنية سعد بن معاذ قبل أن يموت

تقول عائشة: (أصيب سعد يوم الخندق، رماه رجل من قريش يقال له: حبان بن العرقة - وهو حبان بن قيس من بني معيص ابن عامر بن لؤي، رماه في الأكل^(١)، فضرب النبي ﷺ خيمة في المسجد ليعوده من قريب)^(٢).

وتقول رضي الله عنها: (خرجت يوم الخندق أقفو آثار الناس، فسمعت ونئيد الأرض ورأيت - يعني حس الأرض - فالتفت فإذا سعد بن معاذ ومع ابن أخيه الحارث بن أوس، يحمل مجنة، فجلست إلى الأرض، فمر سعد وعليه درع من حديد، قد خرجت منها أطرافه، فأنا أتخوف على أطراف سعد، وكان سعد من أعظم الناس وأطولهم وهو يرتجز ويقول:

ما أحسن الموت إذا حان الأجل ليت قليلاً يدرك الهيجا حمل
«قالت: فقممت، فافتحمت حديقة، فإذا فيها نفر من المسلمين، وإذا فيهم عمر بن الخطاب، وفيهم رجل عليه سبغة له، يعني مغفراً، فقال عمر: ما جاء بك.. لعمري والله إنك لجريئة، وما يؤمنك أن يكون بلاء، أو يكون تحوز..»

قالت: فما زال يلومني حتى تمنيت أن الأرض انشقت لي ساعتئذ فدخلت فيها، فرفع الرجل السبغة عن وجهه، فإذا طلحة بن عبيد الله، فقال: يا عمر.. ويحك، إنك قد أكثرت منذ اليوم، وأين التحوز أو الفرار إلا إلى الله عز وجل».

(١) عرق في الذراع.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٢٢).

قالت: ويرمي سعداً رجلاً من المشركين من قريش يقال له: ابن العرقة بسهم له، فقال: خذها وأنا ابن العرقة، فأصاب أكحله، فقطعه فدعا الله عز وجل سعد، فقال: اللهم لا تمتني حتى تقرّ عيني من قريظة، وكانوا حلفاء ومواليه في الجاهلية، فرقى كلمه^(١)

كان سعد يعاني من جرحه، وما زال يعاني حتى بعد توقف النزيف، لكن جرحه الآخر الذي لا يندمل ولا يبرأ هو ذلك الجرح الذي فتحه يهود بني قريظة بخيانتهم لله ورسوله، ونقضهم العهد وهم الذين يعيشون في ظل دولة الإسلام آمنين مطمئنين.

هذه هي الحرب الثانية، والخيانة الثانية التي يطعنون بها رسول الله ﷺ وأصحابه، لكنها الأشد، لدرجة أنهم جعلوا النبي ﷺ في حالة من القلق جعلته يبحث عن رجل يتوجّه نحو حصن بني قريظة ليرصد آخر تحركاتهم. وهذه هي المرة الثالثة التي يفعلها ﷺ، ومرة ثالثة يُشرق الزبير، فيكسوه النبي ﷺ لقباً بعد عودته.. لقباً يتميز به بين أصحابه ﷺ.

لقب الزبير

يذكره جابر، فيقول: (اشتد الأمر يوم الخندق، فقال رسول الله ﷺ: ألا رجل يأتينا بخبر بني قريظة؟ فانطلق الزبير، فجاء بخبرهم، ثم اشتد الأمر أيضاً «ثم ندب الناس، فانتدب الزبير.

ثم ندب الناس، فانتدب الزبير»، فذكر ثلاث مرات، قال رسول الله ﷺ: إن لكل نبي حوارياً، وإن الزبير حواريني^(٢)

أي صاحبي النقي أو وزيري، والزبير يستحق ذلك بعد جهده وجهاده.. بعد أن فدى النبي ﷺ وأصحابه بروحه، ففداه ﷺ بأمه وأبيه، وتجدد التماهي بين القائد وجنده في أشد لحظات كتابة التاريخ والبطولات، وقدم الزبير للمرة الثالثة تقريراً

(١) حديث حسن عدا ما بين الأقواس الصغيرة فسندها ضعيف لأنها من طريق محمد بن عمرو بن علقمة عن أبيه عن جده عند أحمد ٦-١٤٢ وعمرو يحتاج إلى متابعة لقول الحافظ: مقبول أي عند المتابعة، ويشهد لبقية الحديث ما عند البخاري وابن إسحاق وغيرهما.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٤٧) وأحمد (٣/٢١٤) واللفظ له.